الحجاج القرآني بين النظريتين البلاغية والحجاجية

The Quranic arguments between rhetorical and argumentative theories

أ د. إبراهيم طبشي جامعة ورقلة 1
brahimtobchi@gmail com
أ د. مسعود غريب جامعة ورقلة
ghmessaoud@gmail com

تاريخ الاستلام: 2022/11/14 – تاريخ القبول: 2022/12/21 – تاريخ النشر: 2023/01/05

ملخص: إن مما استرعى انتباه العلماء والدارسين قديما وحديثا أساليب الحجاج في القرآن الكريم ، وهي كثيرة إذ تشمل من علم المعاني التعجب والإنكار والقصر، كما تشمل بعض الصور البيانية كالتشبيه التمثيلي.والملاحظ أن المشتغلين بهذا الموضوع، كان منهم المفسرون وعلماء الكلام والبلاغيون...فكيف اعتنت البلاغة العربية بالحجاج؟ وما المباحث أو الموضوعات البلاغية التي تناولت ذلك؟ كيف تناول المفسرون الحجاج في القرآن الكريم؟ وكيف نظر العلماء المحدثون إليه؟ ومن هم أهم الباحثين العرب الذين كانت لهم تطبيقاتهم لنظرية الحجاج على القرآن الكريم ؟ وما الجديد الذي أضافوه ؟ ذلك ما سنتناوله في هذا المقال.

الحجاج القرآني ، المفسرون ، النظرية البلاغية ، النظرية الحجاجية

The Quranic arguments between rhetorical and argumentative theories

What has actually attracted the attention of scholars and researchers, in the past and in the present time, is the method of argumentation in the Holy Qur'an .
It is noticeable that not all of those working in this issue belong to one field. Rather, they included interpreters, rhetoricians, scholars of theology ... and many others.
It is actually crucial to define the general framework of this paper and ask as many questions as we can to precisely tackle it: How did the Arabic rhetoric put the argumentation on the focus?
What are the themes or rhetorical topics that dealt with that? How did the Qur'an interpreters dealt with the verses of the argumentation in the Holy Quran?How do the modern scholars view it?
Who are the most important Arab researchers who had their applications of the theory of argumentation on the Holy Quran? What is the unprecedented view they added?

Keywords: . Quranic argumentation, rhetoric theory, the argumentation theory

1 المرسل: إبراهيم طبشي، brahimtobchi@gmail com

مقدمة :

في البداية نذكر أن القرآن الكريم كتاب أدلة وبراهين توجَّهَ بها الخالق سبحانه وتعالى إلى العقول والنفوس من أجل إصلاحها وهدايتها إلى الحق ، وقد " تناول [القرآنُ] كثيرا من الأدلة والبراهين التي حاجّ بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع ، في أسلوب واضح النتائج سليم التركيب ، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث

ومن المعلوم أن كتب علوم القرآن قد تناولت الحِجاج تحت عناوين أخرى منها مثلا جدل القرآن ، ومن هذه الكتب " البرهان في علوم القرآن " للزركشي الذي يقول :" اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين"[1] ولعل الإشارة الأخيرة تحتاج منا إلى انتباه ، فهي تدل على وعي علمائنا باختلاف منهج القرآن العظيم عن مناهج المتكلمين التي استمدها أصحابها من ثقافات الأمم الأخرى وفلسفاتها. ويؤكد هذه الحقيقة مناع القطان بقوله :" ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء." [2]

وقد ألف الشيخ ابن تيمية كتابا وضعه تحت عنوان " الرد على المنطقيين " قال فيه : " فنحن قد بينا أن شريعة الإسلام ومعرفتها ليست موقوفة على شيء يُتعلَّمُ من غير المسلمين أصلا ، وإن كان طريقا صحيحا، بل طريق الجبر والمقابلة فيها تطويل يغني الله عنه بغيره ، كما ذكرنا في المنطق."[3] والحق أن هذا الموقف الرافض مطلقا لطريقة أصحاب علم الكلام وأهل المنطق فيه غلوّ ومبالغة ، ذلك أن طريقتهم قد خدمت عقيدة الإسلام وشريعته في مواقف كثيرة ، ولولا أن ظروف المجتمع في العهد العباسي قد دعت إليها ما كتب لها الرواج . وما أحسن ما جاء في كتاب " علم الجذل في علم الجدل " لنجم الدين الطوفي الذي فرّق بين حالين ، إحداهما يكون فيها استخدام الجدل محرما، والأخرى مشروعا، يقول مبينا الهدف من المناظرة :" المقصود من المناظرة إما أن يكون قطعَ الخصم فقط وإظهارَ الغلبة كيف كان أو إظهارَ الحق فقط كيف كان أو هما جميعا ، أعني قطع الخصم وإظهار الحق." [4] ثم يبين الحكم الشرعي في كل هذه الحالات فيقول :" فإن كان المقصود به الأول [وهو قطع الخصم وإظهار الغلبة عليه فقط] فهو حرام لا يتجه في تحريمه خلاف، إذ يقع فيه الغش والخداع والمغالطة والممانعة في الأمور الظاهرة ، وكل ذلك حرام ، وهو الغالب على الناس اليوم... وإن كان المقصود بالجدل القسمين الآخرين ، وهما إظهار الحق مجردا أو قطع الخصم ففعله مشروع بالجملة."[5] ويبين الطوفي حكم تعلّم الجدل فيقول :" أما تعلم الجدل لإظهار

الحق فهو فرض كفاية؛ لأن فيه مصلحة عامة هي المقصود منه لا غير ، وكل ما كان كذلك فهو فرض كفاية . أما أن فيه مصلحة؛ فلأن فيه إظهار الحق للخلق، وإظهارُ الحق للخلق مصلحة عامة ، لأنه إذا ظهر اعتقدوه وعملوا به ، وإذا لم يظهر تعذر عليهم ذلك فكانوا كالمرضى بغير طبيب."[6]

الحجاج في البلاغة العربية

قبل أن نتناول بعض مظاهر الحجاج في البلاغة العربية يقتضي المقام أن نقف مع بعض المعاجم اللغوية لشرح معاني كلمة "حجاج".

إن لفظ " حجاج " من " حَجَجَ" في اللغة، وهذه المادة لها معان معينة في المعاجم اللغوية منها **الغلبة** ، جاء في لسان العرب : " يقال حاججتُه أحاجّه حجاجا ومحاجّة حتى حججته؛ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها " ومن معانيها أيضا **القصد،** قال ابن منظور" والمحجة الطريق، وقيل جادة الطريق" وقال أيضا:" وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك." ومن معانيها **التخاصم** " والتحاج التخاصم ، وجمع الحجة حُجج وحجاج ، وحاجّه محاجّة وحجاجا : نازعه الحجة ."[7] تلك هي أهم مدلولات هذا اللفظ وهي: **1- الغلبة** فالمحاجج يتوسل بكل الحجج لإفحام خصمه وإخضاعه له . 2 **– القصد** : لأن المحاجّة عمل إرادي يستهدف من خلاله المحاجج التغلب على خصمه. 3 – **التخاصم** لأن التنازع واستخدام الحجة يقتضي أن يكون أحد الطرفين مخالفا للآخر غير مقتنع بوجهة نظره .

وأما في القاموس المحيط فقد قال الفيروزأبادي شارحا معنى" الحج" :" الحج القصد والكف والقدوم وسبر الشجة بالمحجاج للمسبار ، والغلبةُ بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد وقصد مكة للنسك وهو حاجّ وحاجج."[8] ويلاحظ أن صاحب القاموس قد اختصر القول في هذه المادة ولم يميز بين المعاني المختلفة لها ، ويمكننا أن نستنتج أنه تعرض في شرحه هذا إلى ثلاثة معان أساسية هي: 1 – الحجاج : وقد ذكر من معانيه القصد والكف والغلبة بالحجة وكثرة الاختلاف. 2 – المحجاج : وهي آلة كانت تستخدم لسبر الجراح . 3 – قصد مكة للحج .

ولنأت الآن إلى كتب البلاغة العربية لاستجلاء مظاهر العناية بالحجاج ومدى اهتمام البلاغيين بهذا الجانب . أول ما نبدأ به **كتاب " البيان والتبيين"** الذي أسس من خلاله الجاحظ نظرية " البيان العربي " التي أقامها على الفهم والإفهام ، يقول في الجزء منه :" لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع."[9] هذه الالتفاتة من الجاحظ تدل على وعي بإحدى الوظائف الأساسية للغة وهي التبليغ . ولا شك أن المرسل يحتاج للقيام بهذه الوظيفة اللغوية (الوظيفة الإقناعية) إلى التوسل بالحجة من أجل قضاء حاجته والتأثير في المتلقي . وهي شرط في تحقق البلاغة كما يقول الجاحظ : " قال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة "[10] ويقول في موضع آخر مبينا أهمية الحجة وما يمكن أن يستخدم للتأثير في المتلقين وسرعة استجابتهم : " قال إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في

عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[11]

وتجدر الإشارة إلى ما قدمه الكاتب المغربي محمد العمري من قراءة جيدة لنظرية البيان عند الجاحظ ، ونرى استكمالا للفائدة أن ننقل بعض الفقرات من كتابه "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها" يقول فيه: " تحدث الجاحظ منذ مطلع الكتاب ، وقبل التصدي للتعريف عن فعلِ البيان وأثرِه ، ومساويءِ العيّ وضررِه . فكشف عن مقصوده بصورة غير مباشرة ، ومرجعُه الدور الإقناعي للكلام وما يتصل به من عناصر إقناعية غير لغوية . كما عرض لهذا الجانب الإقناعي ضمن أخبار وأحداث داخل الكتاب" [12]

وبعد أن استعرض العمري مجموعة من النصوص من "البيان والتبيين"، استخلص من خلالها تركيز الجاحظ على الجانب الإقناعي الذي تحكَّمَ فيه – كما يرى العمري– عاملان: 1–الرؤية العامة للعصر الذي عاش فيه من جانب، 2–همومه الشخصية والمذهبية باعتباره علما من أعلام المعتزلة من جانب آخر. ولكن العمري لاحظ على الجاحظ أنه لم يقدم ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الإقناعي التداولي الخاص . كما لاحظ عليه أنه لم يقدم حين الحديث عن الفهم نعوتا إضافية تدل على امتداد الفهم إلى الإقناع ، بل إن المفهوم العام زاحمَ المفهوم الخاص في المراحل اللاحقة التي أعلن فيها الجاحظ الانتقال من العام إلى الخاص ، حيث نجد الإفهام يُقدَّم بدون قيود أول الأمر، الشيء الذي ينسف بُعده البلاغي ، ثم يتم التراجع عن هذا الإطلاق من خلال تأكيد البعد البلاغي . ومن خلال عملية التراجع هذه يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام.[13]

الكتاب الثاني هو **كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري**، وهو كما يقول العمري" أول محاولة لقراءة أعمال البلاغيين العرب الرواد قراءة شاملة تستهدف الخروج بصيغة عامة تجمع المتفرق."[14]

والملاحظ في هذا الكتاب أن العسكري قد استخدم مصطلح " الاحتجاج " ولكنه جعله نوعا من أنواع البديع إذ يقول في الفصل الخامس والثلاثين تحت عنوان "في الاستشهاد والاحتجاج": " وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول والحاجة على صحته" [15] فهو إذن وإن كان قد جعله من أصناف البديع ، إلا أنه جعله هدفا حجاجيا يتعلق بتدعيم الفكرة الأولى بما يثبت صحتها ويجعلها أكثر قبولا .

ولعل إشارته بعد ذلك إلى مصطلح التلطف أدخلُ في الحجاج وأشد علوقا به إذ يقول في تعريفه " هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه ، والمعنى الهجين حتى تحسنه"[16] ثم يورد مثالا وهو" أنّ يحيى بن

خالد البرمكي قال لعبد الله بن صالح : أنت حقود فقال : إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان ، فقال يحيى ما رأيت أحدا احتج للحقد حتى حَسَّنه غيرُك"[17]

ويحسن بنا التنويه إلى ما ذكره العمري عن المستوى التداولي في كتاب الصناعتين إذ يقول إن أبا هلال خص حال الكاتب بعناية خاصة لما تتطلبه وظيفة الكتابة من معارف ضرورية . فأول ما يجب على المنشئ أن يختاره، الألفاظ والمعاني المناسبة كما يختار اللحظة، فإن تبين له أن طبيعته لا تسعفه في الكتابة تحول إلى غيرها من الصناعات ، ويجب عليه بعد ذلك الموازنة بين أقدار المستمعين وأقدار المعاني ومخاطبة كل طبقة بما يناسبها. كما تناول أبو هلال أحوال الخطاب في مناسبات عدة خاصة في تنظيم الخطاب في البابين الخامس والعاشر . فمرجع الإيجاز والإطناب هو حال المخاطب ، وكذا الشأن في الحديث عن المعاني المناسبة لكل جزء من الكلام ، وما يكون للوصل والفصل من أثر في النفوس . وعرض أيضا لمراعاة أحوال المخاطبين في الفصل الثاني ، خاصة في الحديث عن خطأ المعاني وصوابها ، فخطأ المعاني – كما يرى العسكري – راجع في جانب إلى عدم مناسبتها لحال المخاطبين.[18]

الكتابان الثالث والرابع وهما " **أسرار البلاغة " و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني:**

أول ما نلاحظه كثرة استعمال الجرجاني لمصطلحات حجاجية من مثل: الاستدلال، والدلالة والحجج، والنظر، والتدبر، والاعتراض...، يقول مثلا تحت عنوان "في المعنى ومعنى المعنى": " الكلام على ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل." [19] واضح أن النص ذو طابع حجاجي ، فالكاتب يريد أن يقنع القارئ بوجهة نظره ، وهو لذلك استعمل من الألفاظ " الغرض ، دلالة ، قصدت ، يدلك ، يقتضيه" . والحق أن هذه الطريقة في التحليل لدى الجرجاني هي التي استرعت انتباه الجابري الذي عبر عن ذلك بقوله " إن الجديد في تحليلاته (يقصد الجرجاني) من وجهة نظرنا، إنما يكمن فيما لم يقله صراحة ،أعني فيما كانت تنطوي عليه تحليلاته من معطيات تكشف عن الطابع الاستدلالي للأساليب البيانية البلاغية."[20]

ثم يقول بعد ذلك:" إن إسهام عبد القاهر الجرجاني في تنظيم العملية البيانية وإماطة اللثام عن مكوناتها وآلياتها كان إسهاما مضاعفا ، فمن جهة توّج المناقشات السابقة حول اللفظ والمعنى، ومن جهة أخرى انتقل بهذه المناقشات من مستوى البحث في العلاقة العمودية بين اللفظ والمعنى إلى البحث في العلاقة الأفقية بين الألفاظ بعضها مع بعض ، والمعاني بعضها مع بعض ، بين نظام الألفاظ ونظام المعاني أو نظام الخطاب ونظام العقل.[21]

ومن أمثلة العناصر البلاغية ذات الطابع الحجاجي التي توسع الجرجاني في شرحها وتبيان أثرها في القارئ ، وقد استغرق التفصيل فيها جزءا كبيرا من كتابه " أسرار البلاغة " نجد التشبيه التمثيلي الذي يقول

فيه: " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني كساها أبّهة وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبَّ من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها ... فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ... وإذا كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ، وإذا كان حجاجا كان برهانُه أنورَ وسلطانُه أقهرَ، وبيانُه أبهر"[22]

ويحلل قول الشاعر : والشمسُ كالمرآة في كفِّ الأشل

فيقول:" أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة ، ومع الإشراق والتلألؤ على الجملة الحركةَ التي تراها إذا أنت أنعمت التأمل ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة ، وذلك أن للشمس حركة متصلة دائمة في غاية السرعة ، ولنورها بسبب تلك الحركة تموّجٌ واضطرابٌ عجبٌ ، ولا يتحصل هذا الشبه إلا بأن تكون المرآة في يد الأشل؛ لأن حركته تدور وتتصل ويكون فيها سرعة وقلق شديد حتى ترى المرآة لا تقر في العين ، وبدوام الحركة وشدة القلق فيها يتموج نور المرآة ويقع الاضطراب الذي كأنه يسحر الطرف."[23]

الكتاب الخامس هو "مفتاح العلوم" للسكاكي ، وقد جعل فيه السكاكي الاستدلال جزءا من علم المعاني ، وجعله متعلقا بخواص علم التراكيب ، يقول مبينا أهميته: " ولولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني ، وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه."[24] أما في تعريفه فيقول :" هو اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ أو نفيه عنه بواسطة تركيب جمل ، تنبيه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إباء أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلالا ، مع اكتساب إثبات ونفي بواسطتها ، مما يلزم من اندراج حكم البعض في حكم الكل." [25] يحصل الاستدلال والحجاج حسب هذا التعريف بتركيب من الجمل ، وهو ما يثبت توجه السكاكي إلى التركيز على الجانب اللغوي في الحجاج. " إن نظرة السكاكي للحجاج تستحضر العلاقات التركيبية وأدوارها الاستدلالية التي تشتغل وفق علاقات منطقية طبيعية .بل إنه يزيد هذه النظرة تزكية وتأكيدا من خلال إظهاره للقوة الحجاجية المنطقية للتراكيب اللغوية في أنواع الجمل الاسمية والفعلية ، وكذا المعاني المنطقية التي تقدمها الروابط اللغوية مثل أدوات الشرط."[26]

الكتاب السادس هو منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني : وقد جعل فيه الهدف من الكلام هو الإخبار أو الاحتجاج ، إذ يقول تحت عنوان:" مَعْلَم دال على طرق العلم بما تتقوم به صناعة الشعر من التخييل، وما به تتقوم صناعة الخطابة من الإقناع، والفرق بين الصناعتين في ذلك" يقول:" لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص ، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال."[27] ويذهب القرطاجني إلى أن القول الكاذب قد يصير مقنعا بتمويهات واستدراجات يقوم بها الخطيب ، يقول في ذلك : وإنما يصير القول الكاذب مقنعا ، ومُوهِما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له" [28] ويبدأ بالحديث عن مؤهلات الخطيب التي تكسبه قدرات التمويه والاستدراج فيقول :" وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع

المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها."[29] أما ما يتعلق بالقول والمخاطَب فيقول بشأنهما: " والاستدراجات تكون بتهيؤ المتكلم بهيئة مَن يُقبل قوله ، أو باستمالته المخاطَب ، واستلطافه له بتزكيته وتقريظه ،أو بإطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم ، وكلامُ خصمه غيرَ مقبول."[30] أما عن التمويهات وهي التي تتعلق بالأقوال فتكون" ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صدقا أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح،أو بوجود الأمرين معا في القياس أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معا،أو بإلهاء السامع عن توقع موضع الكذب ..."[31]

المفسرون وآيات الحجاج

استند المفسرون في تفسيرهم لآيات الحجاج إلى معطيات البلاغة العربية ومقولات البلاغيين وذلك ما نلمسه في نوع معين من ألوان البيان منها على سبيل المثال التشبيه التمثيلي أما الأساليب فمنها الاستفهام والقصر، وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل :

1 – التشبيه التمثيلي:

لا شك أن من طرق القرآن في محاجة المبطلين استعماله المثل وسيلة لذلك ، ومن هنا جاء قول صاحب الكشاف عن هذه الظاهرة في القرآن بأنها " شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي."[32] ثم يقول في تفسير قوله تعالى :"إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" والعجب منهم كيف أنكروا ذلك ، ومازال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء فقالوا أجمعُ من ذرة ، وأجرأُ من ذباب ، وأسمعُ من قراد ، وأصردُ من جرادة ، وأضعفُ من فراشة ، وآكلُ من السوس ، وقالوا في البعوضة أضعف من بعوضة ..."[33] ثم يقول: "والتمثيل بهذه الأشياء وبأحقر منها مما لا تغني استقامته وصحته على من به أدنى مسكة ، ولكن ديدنَ المحجوج المبهوت الذي لا يبقى له متمسك بدليل ولا متشبث بأمارة ولا إقناع ، أن يرمي لفرط الحيرة والعجز عن إعمال الحيلة بدفع الواضح وإنكار المستقيم ، والتعويل على المكابرة والمغالطة إذا لم يجد سوى ذلك معولا."[34]

وشرحا للتمثيل الوارد في قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" يقول عبد القاهر الجرجاني:" فإن قلت ففي اليهود شبه من الحمل من حيث هو حمل على حال ، وذلك أن الحافظ للشيء بقلبه يشبه الحامل للشيء على ظهره ، وعلى ذلك يقال حمله الحديث وحمله العلم كما جاء في الأثر " يحمل هذا العلم من كل

خلف عُدولُه ، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ منه" فالجواب أن الأمر وإن كان كذلك فإن هذا الشبه لم يقصد ههنا ، وإنما قصد ما يوجبه تعدي الحمل إلى الأسفار مع اقتران الجهل بها به، وهو العناء بلا منفعة .يبين ذلك أنك قد تقول للرجل يحمل في كمِّه أبدا دفاتر علم وهو بليدٌ لا يفهم أو كسلان لا يتعلم : إن كان يحمل كتب العلم ، فـ "الحمار أيضا قد يحمل " تريد أن تبطل دعواه أن له في حمله فائدة وأن تسوّي بينه وبين الحمار في فقد الفائدة بما يحمل ، فالحمل ههنا نفسه موجود في المشبه بالحمار ، ثم التشبيه لا ينصرف إليه من حيث هو حمل ، وإنما ينصرف إلى ما ذكرت لك من عدم الجدوى والفائدة ."[35] واضح من خلال هذا النص أسلوب الجرجاني في الحجاج ، فهو يورد أكثر من وجه في إفهام الجامع للشبه بين اليهود والحمار فقد يكون هو الحمل نفسه ، وقد يكون شيئا آخر (وهو ما يرجحه الجرجاني) وهو عدم الجدوى والفائدة .

2 – أسلوب الاستفهام : هو ميدان واسع من الميادين التي يتجلى فيها توظيف المفسرين للطاقة الحجاجية الكامنة في هذا الأسلوب، ولعل بعض الأغراض أقدر على إظهار هذه الطاقة الحجاجية من بعض ، ومن ذلك ما نجده في المواضع الآتية:

يتعرض الشيخ ابن عاشور إلى التقريع في قوله تعالى:" كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" فيقول:" والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب والإنكار بقرينة قوله" وكنتم أمواتا " إلخ أي أن كفركم مع تلك الحالة شأنه أن يكون منتفيا لا تركن إليه النفس الرشيدة لوجود ما يصرف عنه ، وهو الأحوال المذكورة بعد ، فكان من شأنه أن ينكر ، فالإنكار متولد من معنى الاستفهام ، ولذلك فاستعماله فيهما من إرادة لازم اللفظ ، وكأن المنكر يريد أن يقطع معذرة المخاطب ، فيظهر له أنه يتطلب منه الجواب بما يظهر السبب ، فيبطل الإنكار والعجب حتى إذا لم يبد كان حقيقا باللوم والوعيد" [36]

ويتعرض بعد ذلك إلى قوله تعالى:" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون " والآيتان كما هو واضح فيهما إبطال لمحاولة أهل الكتاب محاجة المسلمين، يقول الشيخ ابن عاشور بأن سياق الآيتين ينتقل" إلى الإنكار عليهم (أهل الكتاب) محاجتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم ، وزعم كل فريق أنهم على دينه توصُّلا إلى أن الذي خالف دينهم لا يكون على دين إبراهيم ، كما يدعي النبيء محمد – صلى الله عليه وسلم –فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى . وهذه المحاجة على طريق المساواة في النفي ، أو في محاجتهم النبيء في دعواه أنه على دين إبراهيم ، محاجّة يقصدون منها إبطال مساواة دينه لدين إبراهيم ، بطريقة قياس المساواة في النفي أيضا."[37] ويشرح ابن عاشور أركان المحاجة التي وظفها القرآن في إفحام أهل الكتاب فيقول:" والأظهر عندي في تأليف المحاجة ينتظم من مجموع قوله :"وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ" وقوله: "فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ" وقوله:" وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" فيبطل بذلك دعواهم أنهم على دين إبراهيم ، ودعواهم أن الإسلام ليس على دين إبراهيم ، ويثبت عليهم أن الإسلام على دين إبراهيم: وذلك أن قوله "

وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ " يدل على أن علمهم في الدين منحصر فيهما ، وهما نزلا بعد إبراهيم فلا جائز أن يكونا عين صحف إبراهيم.[38]"

ومن الاستفهام أيضا ما ورد في قوله تعالى:" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ" ومعنى الآيات " أما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ ، فتفهمه وتنقاد له ، وتطيع أوامره وتنتهي عند نواهيه"[39] أما الوجه البلاغي في همزة الاستفهام فهي أنها تحتمل أكثر من دلالة ، فالاستفهام الوارد في " ألم يأن " هو استفهام مستعمل في الإنكار ، أي إنكار نفي اقتراب وقت فاعل الفعل ... ويجوز أن يكون الاستفهام للتقرير على النفي ... والمقصود التحذير لا أنهم تلبسوا بذلك ولم يأن لهم الإقلاع عن ذلك. والتحذير منصب إلى ما حدث لأهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد عليهم في مزاولة دينهم ، أي فليحذر الذين آمنوا من أن يكونوا مثلهم على حدثان عهدهم بالدين . وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم لأن طول الأمد لا يكون سببا في التفريط فيما طال فيه الأمد."[40]

من الاستفهامات ذات الطاقة الحجاجية الاستفهام الحامل لدلالة التشويق ، وهو ما نجده في الآية القرآنية " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" تضمنت الآية استفهاما ، وهو" أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتي بعده ، كما تقول : هل أدلكم على عالم عظيم ذي خلق حسن وعِلم فيَّاض ؟ هو فلان ، فيكون ذلك أروع في الخطاب وأجلب لقبوله."[41] والمُشوَّق إليه في هذه الآية هو التجارة ، " والتجارة مُفسَّرةٌ بالإيمان والجهاد. كأنه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم . قال المهدوي: فإن لم تقدِّر هذا التقدير لم تصح المسألة، لأن التقدير يصير: إن دُللتم يُغفر لكم ، والغفران إنما نُعت بالقبول والإيمان، لا بالدلالة. قال الزجاج: ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا."[42]

3 – أسلوب القصر: يقول البلاغيون في تعريفه بأنه جعل الشيء مقصورا على شيء آخر بواحد من طرق مخصوصة من طرق القول المفيد للقصر ، وهو على نوعين قصر حقيقي وقصر إضافي.[43]وقد وظف القرآن الكريم القصر في خطابه للناس، مستثمرا طاقته الحجاجية في إقناعهم بمفاهيم أو عقائد أو أحكام معينة .

من القصر الوارد في سورة البقرة قوله تعالى:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ" فالذي يظهر عند التأمل " أن هذا القول يكون قائلوه أجدر بالمذمة حين يقولونه في جواب من يقول لهم لا تفسدوا في الأرض ، فإن هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض القلب وأفن الرأي ، لأن شأن الفساد أن لا يخفى ولئن خفي فالتصميم عليه واعتقاد أنه صلاح بعد الإيقاظ إليه والموعظة إفراط في الغباوة أو المكابرة وجهل فوق جهل"[44] ويشرح ابن عاشور القصر الوارد هنا فيقول " وأفاد إنما هنا قصر

الموصوف على الصفة ردا على قول من قال لهم لا تفسدوا ، لأن القائل أثبت لهم وصف الفساد إما باعتقاد أنهم ليسوا من الصلاح في شيء أو باعتقاد أنهم قد خلطوا عملا صالحا وفاسدا ، فردوا عليهم بقصر القلب ، وليس هو قصرا حقيقيا ، ولأن حرف "إنما " يختص بقصر القلب كما في دلائل الإعجاز" ولكن الله تعالى عقب عليهم بقوله: "أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ".

ومن القصر أيضا ماورد في سورة آل عمران "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ " ، وهو قصر إضافي وليس قصرا حقيقيا لأن شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يمكن حصره في الرسالة فقط ، " والظاهر أن جملة " قد خلت من قبله الرسل " صفة لرسول ، فتكون هي محط القصر: أي ما هو إلا رسول موصوف بخلو الرسل قبله أي انقراضهم . وهذا الكلام مسوق لرد اعتقاد من يعتقد انتفاء خلة الرسل من قبله . فالقصر على هذا الوجه قصر قلب ، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضد الصفة المقصور عليها، وهي خلو الرسل قبله ، وتلك اللوازم هي الوهن والتردد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام .وقد يكون المقصور عليه هو وصف الرسالة ، فيكون محط القصر هو قوله " رسول " دون قوله " قد خلت من قبله الرسل" ويكون القصر قصر إفراد بتنزيل المخاطبين منزلة من اعتقد وصفه بالرسالة مع التنزه عن الهلاك. وعلى كلا الوجهين فقد نزل المخاطبون منزلة من يجهل قصر الموصوف على هذه الصفة وينكره ، فلذلك خوطبوا بطريق النفي والاستثناء الذي كثر استعماله في خطاب من يجهل الحكم المقصور عليه.[45]

ومن القصر أيضا ما ورد في سورة المائدة :" إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا " بعد أن نهى سبحانه في الآيات المتقدمة عن مولاة الكافرين ، أمر في هذه الآية بموالاة من تجب موالاتهم وهم الله ورسوله والمؤمنون ، وقد وظفت الآية القصر بـ "إنما" والمقصود أنه لا ولي لكم أيها المؤمنون ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بتلك الصفات الآتية بعد. وفي هذا تعريض بمن ينصر مرضى القلوب في توليهم الكفار من دون الله .[46] وفي الآية بالإضافة إلى النهي عن موالاة اليهود والنصارى ، تنويه بالمؤمنين بأنهم أولياء الله ورسوله بطريقة تأكيد النفي أو النهي بالأمر بضده ، لأن قوله " إنما وليكم الله ورسوله " يتضمن أمرا بتقرير هذه الولاية ودوامها ، فهو خبر مستعمل في معنى الأمر ، والقصر المستفاد من " إنما " قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا.[47]

ومن القصر في سورة الكهف قوله تعالى:" قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ" والغرض منه إثبات أن الرسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية ، ولا أن من مقتضى الرسالة أن يحيط علمه بالأشياء فيتصدى للإجابة عن الأسئلة التي تلقى إليه ، ولكنه بشر علمه كعلم البشر أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة . والحصر في " إنما أنا بشر مثلكم" قصر موصوف (الرسول) على صفة (البشرية) وهو قصر إضافي للقلب . وقد أفادت " أنما " في هذه الآية من القصر ما أفادته " إنما " والحصر المستفاد منها هو قصر إضافي للقلب .والمعنى : يوحي الله إلي توحيد الإله وانحصار وصفه في صفة الوحدانية دون المشاركة.[48]

النظرية الحجاجية وتطبيقاتها في القرآن الكريم

لقد ظهرت هذه النظرية منذ 1973 على يد اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو ، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم ، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما ، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية ، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها " أننا نتكلم عامة بقصد التأثير" . وهذه النظرية تريد أن تبين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية ، وبعبارة أخرى ، هناك مؤشرات عديدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها.[49]

وقد استخدم مصطلح " الحجاج " عند العرب واليونان مرتبطا بالجدل أو الخطابة ، ومعنى هذا أنه يوجد على الأقل حجاجان جدلي وخطابي . أما الحجاج الجدلي فمن قبيل ما عرض له أرسطو في كتابه " الطوبيقا" ، ومداره على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد . ويمكن التمثيل لهذا النوع في التراث العربي والإسلامي بمناظرات علم الكلام والمناظرات الفقهية ، كما يمكن التمثيل له بما هو موجود في علوم القرآن تحت عنوان جدل القرآن ، أو المذهب الكلامي في القرآن أو الاحتجاج النظري في القرآن. وأما الحجاج الخطابي فمن قبيل ما عرض له أرسطو في كتابه الخطابة ، وهو حجاج موجه إلى الجمهور ، وغايته التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات وإلى إرضاء الجمهور واستمالته ، ولو كان ذلك بمغالطته وخداعه وإيهامه بصحة الواقع.[50]

ولكن الحجاج لم ينحصر في النوعين السابقين بل ظهر في صورة أخرى بدأت تتشكل مع ظهور كتاب " في الحجاج " لبرلمان وتيتكاه ، ثم استوى على ساقه على يد ديكرو وأوسكمبر وأصبح يعالج في إطار لساني محض.[51]

ولنأت الآن إلى تطبيقات نظرية الحجاج في القرآن الكريم ، وسنقتصر على أنموذجين اثنين أحدهما للدكتور عبد الله صولة والثاني للدكتور أبي بكر العزاوي :

1 – كتاب " الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية " لصاحبه عبد الله صوله ، وقد صدرت طبعته الأولى عام 2001 عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة تونس ، وهو كتاب يقع في ستمائة وسبع وأربعين صفحة . هذا الكتاب دراسة مستفيضة في نظرية الحجاج كما تتجلى من خلال الخصائص الأسلوبية للقرآن ، وقد جعله الكاتب في ثلاثة أبواب وثمانية فصول ، أما الباب الأول فخصصه للمعجم القرآني : خصائص كلماته وحركتها الحجاجية ، وأما الباب الثاني فخصصه للتركيب في القرآن ووجوه الحجاج فيه ، وأما الباب الأخير فخصصه للصورة ووجوه الحجاج فيها . وسنتناول بعض النماذج من المعجم ومن التركيب ومن الصورة .

أ – المعجم

يتعرض الكاتب إلى قسم من كلمات القرآن وهو الكلمات التقويمية ، وقد عَثَرَ منها على ستين مادة لغوية قام بتصنيفها إلى 1 – أفعال 2 – وصفات 3– مصادر وأسماء . وبعد إيراده جداول اشتملت على

هذه المادة اللغوية وتواترها في القرآن وأمثلة عنها ، لاحظ كثرة هذا النوع من الكلمات ، بل استخلص من ذلك أن المعجم القرآني يطغى عليه في مجمله البعد التقويمي. كما لاحظ أن الصفات التقويمية تحتل حيزا أكبر من الأفعال والمصادر والأسماء. ومن المجالات التي تشملها:

1 – أشخاص (كافرون ، ظالمون ، فاسقون ، مجرمون ، فجار/مؤمنون ، مصلحون ، أبرار..إلخ)

2 –وأعمال (الأعمال الصالحات/ الأعمال السيئات)

3 – وأقوال (القول المعروف ، الكلم الطيب / القول المنكر ، الكلمة الخبيثة)

4 – وأشياء (بيت مبارك ، شجرة مباركة / الشجرة الملعونة ، وجوه ناضرة /وجوه مسودة)

5 – ومفاهيم (الزنى فاحشة ، الصبر جميل)

وقد جاءت الصفات التقويمية في القرآن أيضا لامتداح صفات الله تعالى من نحو البصير والحكيم والحليم والحميد والخبير وغيرها .

إن لهذه الصفات من المرونة ما يجعل التقويم بها –على عكس الأفعال والأسماء– يشكل في مستوى المادة اللغوية الواحدة سلما تقويميا ذا درجات متفاوتة. وعلى هذا يظهر أن الصفة أكثر استعدادا من الأفعال والأسماء لا لتقويم العالم والحكم عليه فحسب ، وإنما أيضا لوضع هذا العالم في مراتب متفاوتة ، وهو ما يبرز بجلاء نزوع المعجم القرآني في تقويم المفاضلة بين الأشخاص والأعمال والأشياء. وهذا التقويم التفاضلي يكسب الخطاب القرآني بعدا حجاجيا أظهر وأعمق مما يكسبه إياه مجرد وجود كلمات تقويمية فيه سواء أكانت هذه الكلمات أفعالا أم صفات أم أسماء.[52]

كما تعرض الكاتب في المعجم القرآني إلى حركة الكلمة الحجاجية بناء على خصائصها في اللغة ، وتتم هذه الحركة بالعدول عن الاسم إلى الصفة ، ذلك أن الصفة أكثر إفادة لمعنى التقويم من الاسم ، ومن ذلك مثلا العدول عن اسم "محمد" إلى الرسول في مواضع كثيرة من القرآن . وإذا كان اسم العلم ومحتواه الوصفي شيئا واحدا من الناحية الدلالية ، فإنهما من الناحية الحجاجية مختلفان ، فالعدول عن اسم العلم إلى اسم الجنس فيه لمح الصفة ، وهو يحقق من الناحية الحجاجية أمورا كثيرة ، منها أن اسم الجنس (الرسول أو النبي) لمّا كان فيه لمح الصفة فقد جاء يدل على معنى في المسمى به وهو أنه مرسل ، وهذا المعنى له بدوره مقتضى هو وجود رسالة ومرسل إليهم هم البشر ومرسل هو الله.[53]

ب – التركيب

التركيب من المصطلحات التي شاع استخدامها في العصر الحديث ، وهو قد يستخدم للدلالة على مفهوم الجملة ، كما استخدمه العلماء القدامى للدلالة على مفهوم أوسع منها كالتركيب العددي والتركيب المزجي والإضافي...إلخ. وإذا كانت التراكيب قد حظيت بعناية علماء النحو والبلاغة قديما ، فإنها قد حظيت بعناية اللسانيين في العصر الحديث بأن جعلوها ركنا أساسيا في نظرياتهم اللغوية ، ومنهم بصفة خاصة أندري مارتيني صاحب النظرية الوظيفية ونوام تشومسكي صاحب النظرية التوليدية والتحويلية .

ومن النظريات اللغوية التي اهتمت بالتراكيب أيضا النظريةُ الحجاجية التي نحن بصدد الحديث عنها ، وقد خصص الدكتور صوله الباب الثاني من كتابه للحديث عن التركيب في القرآن:خصائصه ووجوه الحجاج فيه مركزا على جانبين هما : العدول الكمي بالزيادة والعدول الكمي بالنقصان ، ولعل المرتكز في هذا التقسيم هو اعتقاده بأن الكلام القرآني كله قائم على العدول فهو إما إطناب أو إيجاز ولا وجود للمساواة فيه.

وقد ذكر من مظاهر العدول بالزيادة في الجملة توظيف التوكيد وهو أكثر من أن يحصى في القرآن ، وأما الزيادة التي بين الجمل فأشار منها إلى التكرار والبسط والتتميم والاعتراض والتذييل وغير ذلك مما تناوله القدماء . لكن تركيز الكاتب هنا كان على أربع ظواهر هي التكرار والطرد والعكس والاعتراض والتذييل ، وهو يقول بأن العلماء القدامى كانوا يدرسونها تحت مسمى الإطناب ويعدونها من وجوه الإعجاز. أما هو فيرى أن لها أبعادا أخرى وغايات إقناعية وحجاجية .[54]

أما مظاهر العدول بالنقصان فمنها ظواهر الاختزال والضمير والاحتباك والاكتفاء ، وهي التي قَصَرَ عليها الكاتب دراسته . فمن الاختزال مثلا حذف الفاعل والبناء للمجهول ومنه قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ" وقوله سبحانه" وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " ، وللبناء للمجهول عند النحاة أسباب حَصَرها أحد الدارسين في سبعة أشياء ، وهي كما يلي: معلوم ، مجهول ، الإبهام، الخوف ، التعظيم ، التحقير ، الدناءة . أما الكاتب فيرى أن لحذف الفاعل في القرآن غايات تجمعها غاية كبرى هي التبئير (la focalisation)، وهذا ما يجعل الأهمية في الكلام تنتقل من الفاعلية إلى الحدثية . إن صيغة البناء للمعلوم في الآيتين تجعل البؤرة والاقتضاء منصبّين على إبراز قوة الله وقدرته ، وهذا مما يسلم به المشركون ، أما الأمر الذي لا يسلّمون به فهو حدث البعث نفسه ، لهذا جاءت أفعال "بَعَثَ" و"حَشَرَ" وغيرهما من متعلقات البعث والحشر مبنية للمفعول في معظم الأحيان.[55]

ج – الصورة

للصورة أهمية كبيرة في حياة الإنسان ، ومن هنا كان الاهتمام بها كبيرا في مجالات مختلفة من الحقول المعرفية والثقافية والفلسفية والأدبية والفنية ...إلخ " ويُتحدَّث في هذا الإطار عن الصورة النحوية والصورة المنطقية والصورة البلاغية والصورة الذهنية والصورة السينمائية والصورة الإشهارية ، ويتحدث كذلك عن صورة الأنا وصورة الغير، الصورة الثابتة والصورة المتحركة ، الصورة الواقعية والصورة المجردة ."[56]

لا وإذا تصفحنا ما كتبه علماؤنا القدامى بشأن الصورة وجدنا اهتمامهم بها كبيرا " فهم يشددون في دراستهم للصورة القرآنية خاصة والأدبية عامة على علاقتها بالمتلقي وعلاقة المتلقي بها ، أي أنهم يهتمون كثيرا ببعد الصورة الحجاجي من حيث هي تأثير في الوجدان وإقناع للفكر."[57] وهنا يبرز سؤال مهم وهو: ممَّ يستمد القرآن الكريم مادة صوره وهو يخاطب أول ما يخاطب العربَ باعتبارهم القومَ الذين نزل فيهم ومنهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ يخصص الدكتور صولة مبحثين اثنين من الباب الثالث للإجابة عن هذا السؤال :

المبحث الأول يدور حول المجال الحسي ، وتحديدا المجال الزراعي والمجال التجاري والمجال الحيواني والمجال الاجتماعي ، والمبحث الثاني يدور حول حياتهم الفكرية والثقافية والرمزية.[58]

فيما يتعلق بالمجال الأول ذكر الكاتب أن القرآن الكريم أكثر من ضرب الأمثال لحال الدنيا في بهجتها وأنها زائلة بصورة الماء ينزل من السماء فتكون منه الخضرة والنضرة ثم سرعان ما يزول ذلك ، ومنه قوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" إن مشهد الخضرة تتحول إلى حطام وهشيم ، هو بلا مراء من أعظم مشاهد الطبيعة تأثيرا في وجدان العربي ، وهكذا يكون لهذا المشهد بعده الحجاجي[59]

ومن هذا المجال أيضا توظيف القرآن لمادة " التجارة " بمفهوم جديد مخالف لمفهوم التجارة المادية ، وذلك ما نجده في مواضع كثيرة ، منها على سبيل المثال يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" إن هذا النزوع الصريح من القرآن إلى وجوب استبدال تجارة "مادية" بتجارة "روحية" يدعمه على صعيد الصورة إحلال معنى هذه محل تلك . فالتجارة في القرآن هي غالبا تجارة روحية على معنى العمل الصالح أو عكسه ، فهذا هو المعنى الثاني الإيحائي الذي أقصى المعنى الأول وهو معنى التجارة الإخباري . إنه باستخدام معنى " التجارة " والألفاظ المشابهة لها مثل " الشراء" و" الاشتراء " على المجاز قد بات لدينا شكلان تعبيريان اثنان ، أحدهما وهو الإيحائي يتخذ من الآخر وهو التصريحي الإخباري مادة تعبير له أو بالأحرى مادة تصوير ، فيكون ذلك أعقد للحجاج وأقطع للجاج وأقرب مأخذا وأبلغ موقعا.[60]

أما المجال الثاني الذي يدور حول الحياة الفكرية والثقافية للعرب فمنه مادة " الأكل " التي يجريها القرآن على المجاز مستمدا منها صُوَره للتشنيع بهذه الظاهرة ، وقد وردت هذه المادة في القرآن في خمسة عشر موضعا منها " وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ".إن " الأكل " كثيرا ما يُعتمد في القرآن مادة تصوير يعبر بها عن مفهوم الاستيلاء على أموال اليتامى خاصة . وكان يمكن أن يرد اللفظ الدال على ذلك بالتصريح مثل " الاستيلاء " " أو الضم" أو " الإنفاق " ، ولكن إيثار المجاز على الحقيقة باعتماد مادة تصويرية هي الأكل فيه تأكيد للنهي بجعل المنهي عنه بمنزلة الأكل الذي هو مذموم عند المخاطبين.[61]

هذه بعض النماذج من الجوانب الثلاثة التي بنى عليها الكاتب بحثه مستدلا بها على حجاجية الخطاب القرآني، ونختم الحديث عن هذا المؤلَّف بتأكيد الكاتب على الوظيفة التي نيطت بالقرآن وهي الوظيفة الحجاجية الإقناعية ، وذلك ما يعني أن القرآن ينطلق في علاقته بمتلقيه من موقع المحاجة والسعي إلى الإقناع.[62]

أما الكتاب الثاني فهو " الخطاب والحجاج " للدكتور أبي بكر العزاوي ، وقد تضمن فصلا عن حجاجية الخطاب القرآني . بدأ هذا الفصل بالحديث عن إحدى الأنماط التي تحكم النص أو الخطاب وهي العلاقات المنطقية ، ثم تحدث عن الطبيعة الحجاجية التي تتجلى في شكل مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق ، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة ، والدليل يفضي إلى النتيجة ، والنتيجة تفضي إلى دليل آخر ، وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه ، وبعبارة أخرى فإن الأقوال والجمل تقوم بينها علاقات منطقية ودلالية مثل علاقات الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج والتعارض. [63]

بعد هذه التوطئة شرع الكاتب في تحليل سورة " الأعلى " مقسما إياها إلى ثلاثة مقاطع ، أما المقطع الأول فهو يشتمل على نتيجة ومجموعة من الحجج الموصلة إليها ، والنتيجة هي " سبّح اسم ربك الأعلى " أما الحجج فهي: – الذي خلق فسوّى – الذي قدّر فهدى – الذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ، بالإضافة إلى حجج أخرى تخدم النتيجة السابقة، وهذا المقطع كأنه إجابة عن سؤال :لم نسبح الله وتعالى [64].

أما المقطع الثاني فيذكر الكاتب أنه يتضمن توضيحا وتفصيلا لمجموعة من القضايا المرتبطة بالنتيجة الواردة في الآية الأولى ، وهو يجيب عن سؤال : كيف نسبح الله ونعبده؟ وهنا يطمئن الله تعالى نبيه بأنه سيقرئه ، وأنه تكفل بحفظ قرآنه ، ليتمكن النبي صلى الله عليه وسلموأتباعه من القيام بالتسبيح والعبادة ، وليتمكنوا أيضا من القيام بواجب التذكير، وهذا المقطع كأنه إجابة عن سؤال : كيف سبحانه وتعالى؟[65]

أما المقطع الثالث فهو قوله تعالى" بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى" وفي هذا المقطع يتغير المسار الحجاجي للسورة ، فهو يبدأ بالرابط الحجاجي " بل " الذي هو من روابط التعارض الحجاجي ، وهذا الرابط يدرج حجة مضادة للحجج السابقة التي تخدم النتيجة الواردة في الآية الأولى من السورة ، وهذه الحجة هي " تؤثرون الحياة الدنيا" ، وبذلك تكون النتيجة المضادة للنتيجة السابقة هي " لن تسبّحوا ربكم " وهي نتيجة مضمرة غير صريحة . وإذا تفحصنا في هذا المقطع فإننا نجده متضمنا لعلاقة حجاجية بكامل عناصره ، وله وحدته الموضوعية واستقلاله النسبي ، هذه العلاقة الحجاجية هي كالتالي : فهناك الحجة الصريحة " قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه" التي تخدم نتيجة مضمرة من نمط " اذكر اسم ربك " ، وهناك من جهة أخرى الحجة الأقوى " تؤثرون الحياة الدنيا " التي تؤدي إلى النتيجة المضادة " لن تذكروا اسم ربكم " ، ثم هناك الرابط الحجاجي " بل " الذي يربط بين هذه الحجج والنتائج ، وإذا أخذنا بهذا التقطيع للسورة ، فسيكون المقطع الأخير ملخصا للسورة برمتها ومتضمنا لبرنامجها الحجاجي العام.[66]

الخاتمة:

وفي ختام هذا المقال نستخلص النتائج الآتية:

– إن البلاغة العربية قد اهتمت بإبراز الحجاج في مباحث منها القصر والتوكيد وبعض الأساليب الطلبية كالاستفهام مثلا وكذا التشبيه التمثيلي ...

– قد استفاد المفسرون من هذه المباحث في تفسيرهم لآيات القرآن الكريم .

– ركزت النظرية الحجاجية على المباحث نفسها. ورأينا كيف حاول دارسان عربيان تطبيق النظرية الحجاجية في القرآن الكريم .

– كان منهج المحدثين مختلفا عن مناهج البلاغيين والمفسرين القدامى ، كما كانت النتائج التي توصلوا إليها مختلفة عن سابقيهم

---

[1]البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ج 2 ص 24

[2]مباحث في علوم القرآن ص 310

[3]الرد على المنطقيين ، ص 303

[4]علم الجذل في علم الجدل ص 6

[5]المصدر نفسه ص 6

[6]المصدر نفسه ص 6

[7]لسان العرب ، ابن منظور ، مادة حجج

[8]القاموس المحيط ، الفيروزأبادي ، مادة الحج

[9]البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج 1 ص 76

[10]المصدر نفسه ج 1 ص 88

[11]المصدر نفسه ج 1 ص 114

[12]البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص 197

[13]انظر المرجع نفسه ص 200 – 201

[14]المرجع نفسه ص 283

[15]كتاب الصناعتين ، ص 282

[16]المصدر نفسه ص ص 290

[17]المصدر نفسه ص 290

[18]انظر البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص 285 – 287

[19]دلائل الإعجاز ص 268

[20]بنية العقل العربي ص 83

[21]المرجع السابق والصفحة نفسها

[22]أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ص 115

[23]نفسه ص 157

[24]مفتاح العلوم ص 544

[25]المصدر نفسه ص 548

[26]أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير ، محمد يطاوي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، العدد الحادي والعشرون 1439 هـ - 2018

[27]منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص 62

[28]المصدر نفسه ص 63

[29]المصدر نفسه ص 63

[30]المصدر نفسه ص 64

[31]المصدر نفسه ص 64

[32]الكشاف ، الزمخشري ج 1 ص 191

[33]المصدر نفسه ج 1 ص 235

[34]المصدر نفسه ج 1 ص 235 - 236

[35]من أسرار البلاغة ص 84 - 85

[36]التحرير والتنوير ج 1 ص 374

[37]المصدر نفسه ج 3 ص 270

[38]المصدر نفسه ج 3 ص 272

[39]تفسير المراغي ، الجزء السابع والعشرون ص 172

[40]التحرير والتنوير ج 27 ص 391 - 392

[41]تفسير المراغي ج 28 ص 90

[42]الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ج 20 ص 446

[43]البلاغة العربية ، الميداني ج 1 ص 523

[44]التحرير والتنوير ج 1 ص 285

[45]انظر التحرير والتنوير ج 4 ص 111

[46]انظر تفسير المراغي ج 6 ص 143

[47]التحرير والتنوير ج 6 ص 239

[48]انظر المرجع نفسه ج 16 ص 54 – 55
[49]اللغة والحجاج ، أبو بكر العزاوي ص 14
[50] انظر الحجاج في القرآن ، عبد الله صولة ص 18
[51]انظر المرجع نفسه ص 21
[52]انظر المرجع السابق ص 145
[53]انظر المرجع نفسه ص 178
[54]انظر الحجاج في القرآن ص 348
[55] انظر المرجع نفسه ص 394
[56]الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ص 100
[57]الحجاج في القرآن ص 481
[58]انظر الحجاج في القرآن ص 501 – 502
[59]المرجع نفسه ص 504
[60]المرجع نفسه ص 518
[61]انظر المرجع نفسه ص 524 – 526
[62] المرجع نفسه ص 616
[63]انظر الخطاب والحجاج ، أبو بكر العزاوي ص 17
[64]انظر المرجع نفسه ص 18 – 19
[65]انظر المرجع نفسه ص 21
[66]انظرالمرجع نفسه ص 21 – 23

المصادر والمراجع

ابن تيمية 2005 ، الرد على المنطقيين ، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان
الجابري محمد العابد 2009، بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية بناية باب النهضة لبنان ،
الجاحظ 1998، البيان والتبيين ، ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة
الجرجاني عبد القاهر 1988 ، أسرار البلاغة ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان
الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز2007 ، دار الفكر بدمشق
الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث القاهرة

الزمخشري 1998 ، الكشاف ، مكتبة العبيكان الرياض
السكاكي 2000 ، مفتاح العلوم ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان
صولة عبد الله صولة ، 2007 ، الحجاج في القرآن ، دار الفارابي بيروت لبنان

الطوفي نجم الدين 1408 – 1987، علم الجذل في علم الجدل، تحقيق قولفهارت هاينريشس ، دار النشر فرانز شتاينر قيسبادن
ابن عاشور محمد الطاهر،1984 ، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر
العزاوي أبو بكر 2010، الخطاب والحجاج ، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر بيروت لبنان
العزاوي أبو بكر 2006، اللغة والحجاج الأحمدية
العسكري أبوهلال 2004 ، كتاب الصناعتين ، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت
العمري محمد ،2010 البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق
الفيروز آبادي ، 2005 ، القاموس المحيط، تح محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت
القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان
القرطبي ، 2006، الجامع لأحكام القرآن ، ، مؤسسة الرسالة
القطان مناع،2000 مباحث في علوم القرآن ، مكتبة المعرف للنشر والتوزيع الرياض
المراغي أحمد مصطفى ، 1946 ، تفسير المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي بمصر
ابن منظور ، 1997، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان
الميداني حسن حبنكة ، 1996 ، البلاغة العربية ، دار القلم دمشق
أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير ، محمد يطاوي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، العدد الحادي والعشرون 1439 هـ – 2018